obeikan.com

رأيته في اللطف

بقلم: آية علم الدين

يسألني الصغير عندما أخبره عن الله: «هو ربنا فين؟»

لا أعرف ردًّا محددًا لهذا السؤال، حتى الإجابة التي اعتدنا عليها منذ كنا صغارًا، أشعر أن فيها تدليسًا على الأطفال، لكنني أقولها لأنها الأقرب، وربما الأسهل بالنسبة لفهمي وفهمه: «ربنا في السما».

«وجدو عند ربنا في السما؟»

«أيوه يا حبيبي»

«طيب انتي شفتي ربنا؟»

لا أستطيع الرد! هل رأيته فعلاً؟

لو كنتَ يا صغيري في موقعي هذا ما سألتني: هل رأيت الله؟

نعم رأيته رؤية القلب والروح، فما العين إلا مرآة لما يراه القلب لا العكس، فالعين المجردة تخفي عن المحب عيوب محبوبه، والعين وحدها تخدع الكاره عن محامد من يكره، ألا يقولون: عين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا! إذا فما الذي قد أُعوّله على رؤية النظر فقط إن كان القلب رأى والروح شعرت ولمست، بل وطعمت هذا المذاق الحلو لقرب الحبيب؟

لم يكن أبي بعدُ قد أتم عامه الأول في دار البقاء، ستة أشهر أو أقل لم أذق فيهم

طعـمًا للحيـاة، كنـت أرى الكـون مـن خلالـه، فلـما ذهـب ذهبـت معـه الرؤيـة، بـل وذهـب طعـم الحيـاة كلهـا، حتـى ذهبـت إلى ذلـك المـكان الـذي دعـاني صاحبـه إليـه دون حيلـة منـي.

في خلوتـه التـي يحتضنهـا جبـل حميـثرة جلسـت حيـث جلـس سـيدي صاحـب الخلـوة والكرامـات، الـذي وقـف عـلى بـاب المدينـة المنـورة يومًـا عـاري الـرأس والقدمـين حتـى أتـاه الإذن مـن سـاكنها عليـه أفضـل الصـلاة والتسـليم، أمـا أنـا فلـم أكـن بمثل هـذا الأدب والعلـم حتـى أفعـل، فقـط جلسـت حيـث أجلسـوني، وصعـدت أتلمـس خطـو الصالحـين؛ عـلِّي أجـد عـلى الجبـل هـدى لنفـسي الحائـرة وقلبـي الضائـع.

خلعـت عقـلي عـلى بـاب الجبـل المقـدس، وصعـدت كـما صعـد المريـدون، أنظـر إليهـم كلـما غلبنـي التعـب، فـأرى عـلى عيونهـم أثـر المحبـة مسـتقرًّا، والـود لا يفـارق ثغورهـم حتـى أننـي ظننتهـم الملائكـة!

وعندمـا اسـتقر بي الجلـوس عـلى حجـارة مـن الجبـل بمقابـل المقـام، وبينـما يحـاول كل منهـم أن يخلـو بالحبيـب فيهيـم بروحـه إليـه، غفـوت!

أجـل غفـوت، أو بالأحـرى صحـوت مـن غفـوة الجسـد في أغـراض الدنيـا الزائفـة إلى حقيقـة لم تكـن مـن قبـل بهـذا الوضـوح والاتسـاع، وجدتنـي في موكـب كبـير أقـف عـلى عتبـات شـيخ مليـح الوجـه مهيـب الجنـاب ذي لحيـة بيضـاء خفيفـة وابتسـامة أبويـة حانيـة، طلبـت الدخـول عليـه فأدخلـوني، وبينـما أخطـو بخطـوات وئيـدة حائـرة في جمـع كلـمات الشـكوى واختصارهـا للبـث وجدتـه يبسـم لي بيـد ممـدودة للسـلام.

مـددت يـدي، فلـم يعـد بعـدُ قلبـي كـما كان قبـل السـلام، وكأن هـذا السـلام كان بمثابـة غسـيل لـكل الأوجـاع التـي اختزنهـا عقـلي عـلى مـدى سـنوات عمـري الماضيـة، ضمـة ليـدي البـاردة أعـادت الحيـاة إلى جسـد تَمَكَّـن منـه الحـزن فظننتـه مـات، وبابتسـامة ودودة همـس لي أن «اطمئنـي» فاطمأننـت!

أهكـذا وبـكل هـذه السـهولة؟ أجـل؛ إنـه لطـف اللـه الـذي ينقـذ بـه عبـاده، قبـل أن يسـقطوا عـلى أعتـاب اليـأس، نقطـة النـور التـي تبـدد ظـلام أنفسـهم فتحيلـه إلى ضـوء سـاطع يهديهـم إليـه.. إنـه لطـف اللـه بعبـاده.

وتسألني يا صغيري: هل رأيتِ الله؟ فأقولها بفم مملوء: نعم رأيته.. رأيته.. عندما تشتد مصائب الدنيا عليَ فأجده -دون مناسبة- قادمًا إليّ ليحتضنني فيزيل عني كل الهموم! رأيته في حادثة طريق كادت تودي بحياتي لكنه وضع نجاتي في حزام أمان هزيل! رأيته في دعوة جارتنا المسكينة ألا تموت وحيدة، فيشاء لها الله أن تنتهي حياتها في يوم زيارة العائلة!!

الله لطيف بعباده، وأنا رأيته في اللطف..

obeikan.com